مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السادس
1989م.

ابن تومرت

علاقته بالغزالي وموقف ابن تيمية منه

الدكتور: عبد اللطيف عبادة
جامعة قسنطينة - الجزائر

مقدمة:

كان زعيم الموحدين الروحي والسياسي محمد بن تومرت مهدي الموحدين [ت 524هـ] رجلاً عظيماً حقاً. وكل رجل عظيم له أنصار يوالونه وخصوم يحادونه. وتأبى بعض الروايات التاريخية إلا أن تربط بينه وبين حجة الإسلام الغزالي بعلاقات حميمة. ولا يتعذر على الباحث المتفحص أن يهتدي إلى القواسم المشتركة الموجودة بينهما، منها: تأثرهما بإمام الحرمين أبي المعالي الجويني ونقمتهما على الدولة المرابطية في أواخر أيامها، وثورتهما على جمود الفقهاء. كما أنه لا يتعذّر عليه أن يهتدي إلى المسائل التي تفرق بين مهدي الموحدين وبين شيخ الإسلام ابن تيمية وأهمها انتماؤه إلى الاعتزال والتشيع واختراعه لبعض البدع والضلالات التي تزعج الفكر السلفي وتقضُّ مضاجع أقطابه، ولكن رضى هؤلاء وسخط أولئك لا يزيد ولا ينقص من قيمة ابن تومرت شيئاً. فسيبقى المهدي منظر وزعيم ثورة هائلة استطاعت أن توحد شمل أبناء المغرب الإسلامي وتشهر سيف الجهاد في وجوه الأمم المسيحية التي تتربص بالعالم الإسلامي الدوائر، فتقض مضجعهم وتقلق قادتهم فيكبون على دراسة الحركة الموحدية وعلى ترجمة

بعض رسائل ابن تومرت ليقفوا على سر قوته قصد محاربته بالفكر والسيف. ولا عجب مطلقاً أن يشبهه مارك الطليطلي بالغزالي الفيلسوف الواسع المعرفة[1].

ولم يكن مارك الطليطلي هو الوحيد الذي أعلى من قيمة الرجل ودفعه إلى مصاف المفكرين أمثال الغزالي. فإن السبكي قد جعله من فقهاء الشافعية وترجم له وقال فيه: « كان أشعرياً صحيح العقيدة أميراً عادلاً داعياً إلى طريق الحق»[2].

وابن تيمية ذاته وإن كان من خصومه الألداء يقول عنه: «وتعلم طرفاً من العلم، وكان فيه طرف من الزهد والعبادة»[3].

اعتنى ابن تومرت إلى جانب دعوته إلى الثورة الدينية والسياسية على الملثمين بتأليف الرسائل في الأصول والفقه والسياسة. واستحق بذلك أن يكون زعيماً روحياً وسياسياً لحركة الموحدين. وأشهر ما خلف لنا من الرسائل الذائعة الصيت التي لقيت إعجاب العلماء أو معارضتهم عقيدته ومرشدته ورسالته في الامامة إلى جانب كتاب الجهاد التي تكون إلى جانب رسائل أخرى كتاب «أعز ما يطلب».

من هو ابن تومرت؟ [524هـ 1129م]

يقول الدكتور يحيى هويدي: «اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي ولد فيها محمد بن عبد الله بن تومرت الملقب بمهدي الموحدين، وهو الرجل الذي أسس دولة الموحدين التي قامت على أنقاض دولة المرابطين. فالبعض (ابن الأثير في الكامل) يجعلها سنة 469هـ أو سنة 473هـ والبعض الآخر (القفطي في اخبار العلماء بأخبار الحكماء، وحاجي خليفة في كشف الظنون) يجعلها سنة 493. وآثر البعض الآخر (عبد الواحد المراكشي في المعجب في تلخيص أخبار المغرب وابن أبي ذرع في الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) عدم التعرض لها اطلاقاً.»[4].

ولهذا نجد معظم الباحثين المحدثين الذين ترجموا لمحمد بن تومرت يحجمون عن

---

(1) انظر: مقدمة ترجمة عقيدة ابن تومرت لمارك الطليطلي منقولة إلى اللغة العربية في كتاب «أعز ما يطلب» لمحمد بن تومرت تقديم وتحقيق د. عمار طالبي. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1985، ص 22.

(2) الطبقات ج5، ص 70.

(3) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: ج11، ص 476.

(4) د. يحيى هويدي: محمد بن تومرت وتوفيقه بين الحكمة والشريعة. مجلة الأصالة، العدد 12 ـ ص 19.

ذكر تاريخ ميلاده. تلقى المصمودي ابن تومرت تكوينه في بغداد والقاهرة وربما في دمشق. يقول ابن تيمية: «وكان قد دخل إلى بلاد العراق وتعلم طرفاً من العلم»[5].

من أساتذته الكيا الهراسي (ت 504هـ) وأبو بكر الشلشي (ت507هـ). ويميل بعض الباحثين إلى كونه قد تتلمذ على الغزالي (505هـ) والطرطوشي (520هـ أو 525هـ) في حين يجعل باحثون آخرون ذلك من قبيل الأسطورة[6].

وقد تعرف على مذهب الجويني بواسطة الكيا الهراسي. واطلع على المذهب الحنبلي الذي كان الهراسي من أعظم خصومه.

ولا يستبعد أن يكون قد اطلع على مذهب الامامية خلال اقامته ببغداد وعلى مذهب الاسماعيلية خلال إقامته بالقاهرة[7].

كما لا يستبعد أن يكون قد اطلع على فكر المعتزلة بطريق مباشر وبطريق غير مباشر من خلال مؤلفات الجويني وابن عقيل مع العلم بأن الجويني كما يذهب إلى ذلك ابن تيمية يميل إلى مذهب المعتزلة. يقول ابن تيمية: «وأما الجويني ومن سلك طريقه: فمالوا إلى مذهب المعتزلة، فإن أبا المعالي كان كثير المطالعة لكتب أبي هاشم، قليل المعرفة بالآثار، فأثر فيه مجموع الأمرين»[8]. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن ابن عقيل: «وأما ابن عقيل فإذا انحرف ـ على حد تعبير ابن تيمية ـ وقع في كلامه مادة قوية معتزلية في الصفات والقدر، وكرامات الأولياء؛ بحيث يكون الأشعري أحسن قولاً منه، وأقرب إلى السنة»[9].

مذهب:

مذهب ابن تومرت تلفيقي انتقائي جمع بين عناصر شتى ومتناقضة في كثير من الأحيان.

إن مذهبه في التوحيد يرفض كل تشبيه. إن الخالق سبحانه لا يشبه المخلوق:

---

(5) ابن تيمية: المرجع السابق، ص 476.

(6) Henin larist: les schismes daus fjslam. SNED. hg.. 1979 p, 217.

(7) Ibid, p. 217

(8) ابن تيمية المرجع السابق، ج 6، ص 52.

(9) ن.م.ص 53.

«فالله موجود على الاطلاق من غير تشبيه ولا تكييف، لو اجتمع العقلاء بأجمعهم على أن يكيفوا بصر المخلوق أو سمعه أو عقله لم يقدروا على ذلك، مع أنه مخلوق، فإذ عجزوا عن تكييف ما هو مخلوق، فعن تكييف من لا يجانسه مخلوق، ولا يقاس على معقول أعجز، ليس له مثل يقاس عليه، هو كما قال تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ لا يلحقه الوهم، ولا يكيفه العقل»[10].

وكان ابن تومرت يرمي إلى توحيد الأمة حول شخص واحد ومذهبه وعمله وهو شخصه هو (مهدي الموحدين). «وأمر المهدي حتم، من خالفه يقتل، لا دفع في هذا لـدافع، ولا حيلة فيه لذائع، ثبت بثبوت نصوص الكتاب، وقواطع الشرع، وبيان العلم...»[11] وكانت أصوله هي الكتاب والسنة والاجماع[12].

وكان ابن تومرت من أشد أعداء التقليد واتباع الأئمة غير إنه اعترف بالموطأ[13]. وأملاه في أول رمضان 515هـ برباط هرغة ببلد السوس وسمي «بمحاذي الموطأ»[14].

فالمهدي ـ في مذهب ابن تومرت ـ هو الذي يؤول مصادر الشريعة. وهو معصوم في نظره على غرار أئمة الشيعة: وتوجد بين مذهب ابن تومرت والجويني والمعتزلة روابط وثيقة خصوصاً في عقيدته ومرشدته. إن نظريته في الصفات ذات صبغة معتزلية لأنها تعرف الله بالنفي وتنفي وجود صفات في الله منفصلة عن ماهيته مع أنها تصفه اقتداء بالأشاعرة بأنه حي عالم وقادر ومريد وسميع وبصير، إنه ـ في نظر لاووست ـ يتجنب من جهة أخرى في عقيدته ومرشدته التي تلخصها طرح مشكلة خلق القرآن ولا يتحدث عن كثير من الأمور المهمة التي يتعلق بها الفكر السني التقليدي كالاستواء والنزول والرؤية. وإذا تحدث عن الاستواء والنزول فيصنفهـا في صنف المتشابهات التي يجب أن نؤمن بها دون أن نحاول فهمها[15].

والواقع أن ابن تومرت يتعرض في عقيدته إلى قواعد وأركان الإسلام الخمسة

---

(10) أعز ما يطلب. ص 217.

(11) ن.م. ص،236.

(12) ن.م.ص 45.

(13) Henin Larust: opcit. p. 218.

(14) أعز ما يطلب ص 12.

(15) Hani Larist: op.cit. Fpp218 et 219.

وإلى الاخلاص وإلى صدق الرسول. كما ينبهنا إلى أنه «بضرورة العقل يعلم وجود الباري سبحانه وتعالى وبحدوث نفسه يعلم الانسان وجُود خالقه. وينفي تشبيه الله بمخلوقاته ويتعرض إلى انفراد الله بالملك وإلى القضاء والقدر والعدل والإحسان الإلهيين وإلى الأسماء الحُسْنَى وإلى اثبات الرسالة بالمعجزات[16]. أما بصدد الاستواء والنزول فيقول: «للعقول حد تقف عنده لا تتعداه وهو العجز عن التكييف، ليس لها وراءه مجال وملتمس إلا التجسيم والتعطيل، عرفه العارفون بأفعاله، ونفوا التكييف عن جلاله لما يؤدي إليه من التجسيم والتعطيل، وذلك محال، وكل ما يؤدي إليه المحال فهو محال، لشهادة الأفعال على وجود خالق، انفرد بالاقتدار، وما ورد من المتشابهات التي توهم التشبيه والتكييف كآية الاسراء، وحديث النزول، وغير ذلك من المتشابهات في الشرع، يجب الإيمان بها كما جاءت مع نفي التشبيه والتكييف، لا يتبع المتشابهات في الشرع إلا من في قلبه زيغ»[17].

وخلافاً لما ذهب إليه لاووست فقد تحدث عن الرؤية وفقاً لما ذهب إليه أعلام الفكر السني. يقول: «وما ورد من الشرع في الرؤية يجب التصديق به. يرى من غير تشبيه ولا تكييف، لا تدركه الأبصار، بمعنى النهاية والإحاطة والاتصال والانفصال، لاستحالة اتصافه بحدود المحدثات...»[18].

ويلتقي ابن تومرت بابن رشد [1126-1198م] الذي عاش بعده في مسائل أهمها:

- يرى ابن تومرت أن التوحيد قائم على أساس النظر العقلي ويبرز في هذا السبيل فضل العلم والعلماء. ويستدل بالآيات التي تحث على النظر في الكون والموجودات. كذلك ابن رشد فإنه أبرز ما يقرره الشرع من وجوب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها.

- يرى ابن رشد أن الشريعة حق وأن الحكمة حق والحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد عليه. ويقول بالتأويل وفق قانون التأويل العربي إذا تعارض ظاهر الشرع مع ما وصل إليه البرهان. وهو نفس ما يذهب إليه ابن تومرت.

---

(16) أعز ما يطلب. ص 213 إلى 223.

(17) أعز ما يطلب. ص 217.

(18) ن.م.ص 221

ـ براهين ابن تومرت وابن رشد على وجود الله هي عينها البراهين الواضحة البسيطة التي وردت في القرآن الكريم: دليل العناية ودليل الاختراع.

ـ نقد ابن رشد للاشاعرة بصفة خاصة على أساس أنهم يقيسون الغائب على الشاهد هو نفس النقد الذي وجهه ابن تومرت لهم.

ـ حديث ابن رشد في التقابل بين القياس العقلي والقياس الشرعي أو الفقهي هو نفس حديث ابن تومرت.

ـ تقسيم ابن رشد الناس إلى برهانيين وجدليين وخطابيين هو نفس تقسيم ابن تومرت السائلين إلى مسترشد ومستفت ومناظر.

ـ كلام ابن تومرت في التأويل هو نفس كلام ابن رشد عنه.

ـ نقد ابن رشد للمتكلمين هو نفس انتقاد ابن تومرت. وإن هذا التشابه الكبير هو الذي جعل د. يحيى هـويدي يقول: «ليس هناك ما يمنع من أن يكون ابن رشد قد اطلع على كتابات ابن تومرت»[19].

إلى جانب واجبات المسلم يضيف ابن تومرت الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. هذا الجهاد الذي سيجعل منه ابن تومرت وسيلة لمحاربة أعدائه في الداخل وفي الخارج[20].

ولا يرى ابن تومرت مانعاً من إشهار السيف في وجوه الحكام الظلمة ولذلك شبهه ابن تيمية بالخوارج الذين يرون السيف ويكفرون بالذنب[21].

وإن عصمة الامام ـ في رأيه ـ تسمح له بأن يكفر ويقرر بأن فلان من أهل الجنة أو من أهل النار في يوم كان الموحدون يسمونه بيوم الفرقان[22].

وهكذا يتضح لنا أن مذهب ابن تومرت مذهب تلفيقي يجمع بين رأي الأشاعرة والمعتزلة والشيعة والخوارج والظاهرية. واستطاع أن يخرج من ذلك بمذهب تمكن

---

(19) د. يحيى هويدي: المرجع السابق، ص 28 و29.

(20) H. Larist. op.cit p.219

(21) ابن تيمية: المرجع السابق. ج35، ص 143.

(22) ن.م.ج 11، ص 478.

بواسطته من جمع شمل سكان المغرب فأصبحوا أمة واحدة مهابة الجانب يحسب لها الأعداء حسابها.

المرشدة:

المرشدة رسالة من الرسائل في العقائد ألفها المهدي بن تومرت وأوجب على اتباعه قراءتها. وهي مرشدة واحدة وليست هناك مرشدتان كما يدعي هنري لاوست[23]. ولقد اشتهرت هذه المرشدة وشرحها السنوسي (ت 825هـ) وشرحها ابن عباد التلمساني [ت792هـ] في الدرة المشيدة في شرح المرشدة، وغيرهما. وأصدر ابن تيمية بشأنها فتويين شهيرتين أجاب في الأولى عن السؤال «كيف كان أصل المرشدة وتأليفها؟ وهل تجوز قراءاتها أم لا؟»[24] وأجاب في الثانية على من ادعى بأن من لم يقرأها فهو كافر[25]. وتتضمن المرشدة ما يلي:

1 ـ أنه يجب على كل مكلف أن يعلم مضمونها.

2 ـ وتتضمن المرشدة ملخص العقيدة التومرتية والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

ذكر صفات الله بأنه واحد في ملكه خالق كل شيء، جميع الخلائق مقهورون بقدرته وبأنه موجود قبل الخلق وبأنه لا يوجد في مكان ولا يتخصص في الذهن ولا يتمثل في العين ولا يتصور في الوهم ولا يتكيف في العقل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فعال لما يريد، قادر على ما يشاء، لا دافع لما قضى ولا مانع لما أعطى. كان ولا مكان كون المكان ودبر الزمان ولا يتخصص بالمكان لا يلحقه وهم ولا يكيفه عقل[26]. وبناء على هذه المرشدة قال فيه ابن تيمية: «ابن التومرت الملقب بمهدي الموحدين ومذهبه في الصفات مذهب الفلاسفة لأنه كان مثلهم في الجملة ولم يكن منافقاً مكذباً للرسل معطلاً للشرائع ولا يجعل للشريعة العملية باطناً يخالف ظاهرها بل كان فيه نوع من رأي الجهمية الموافق لرأي الفلاسفة ونوع من رأي الخوارج الذين يرون السيف ويكفرون بالذنب»[27].

---

(23) H. Laorut: op. cit. p218.

(24) ابن تيمية: مجموع الفتاوي، ج11، ص 476 إلى 491.

(25) ن. م. ص 492.

(26) أعز ما يطلب ص 226 .

(27) ابن تيمية: المرجع السابق، ج35، ص 142 و143.

ويلحقه في كتاب آخر بنفاة الصفات من فلاسفة ومعتزلة فيقول: إن نفاة الصفات من المتفلسفة وغيرهم يسمون نفي الصفات توحيداً وكذلك المعتزلة ومن ضاهاهم ضد الجهمية يسمون ذلك التعطيل توحيداً وهم ابتدعوا هذا التعطيل الذي يسمونه توحيداً. وجعلوا اسم التوحيد واقعاً على غير ما هو واقع عليه في دين المسلمين. فإن التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ولا يجعل له نـدّاً كما قال تعالى: ﴿**قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دينِ**﴾ ومن تمام التوحيد أن يوصف إليه تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ويصان ذلك عن التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل كما قال تعالى: ﴿**قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**﴾. ومن هنا ابتدع من ابتدع لمن اتبعه على نفي الصفات اسم الموحدين وهؤلاء منتهاهم أن يقولوا هو الوجود المطلق بشرط الاطلاق كما قال طائفة منهم أو بشرط نفي الأمد والثبوتية كما قاله ابن سينا واتباعه أو يقولون هو الوجود المطلق لا بشرط كما يقوله القونوي وأمثاله»[28].

والواقع أن ابن تومرت قد اطلع على رأي المعتزلة والأشاعرة والحنابلة في الصفات بمذهب خاص به تأثر فيه والحنابلة في الصفات وخرج بمذهب خاص به تأثر فيه بالمعتزلة وبأبي المعالي الجويني وأتباعه من الأشاعرة.

فالمعتزلة يرمون الحنابلة بالتجسيم والتشبيه والحشو والحنابلة يـرمـون المعتزلـة بالتعطيل وبتأويل الصفات الخبرية تأويلاً تعسفياً. إنهم يقولون إن صفات الله هي عين ذاته. إن الله ـ في نظرهم ـ عالم قادر مريد حي بماهيته لا يعلم وقدرة وحياة وإرادة. وينفي المعتزلة الاستواء والنزول والرؤية. ولذلك يقول ابن تيمية إن الله عند المعتزلة يعرف بالنفي لا بالاثبات. أما الأشاعرة فيميزون بين الصفات العقلية والسمعية، بين الصفات الأزلية الأساسية والصفات الزائدة على الماهية: الأولى سبعة والجسمية يمكن تأويلها. يقول ابن تيمية «المثبتون للصفات منهم من يثبت الصفات المعلومة بالسمع كما يثبت الصفات المعلومة بالعقل وهذا قول أهل السنة خاصة أهل الحديث ومن وافقهم وهو قول أئمة الفقهاء وقول أئمة الكلام من أهل الاثبات كأبي محمد بن كلاب وأبي عباس القلانسي وأبي الحسن الأشعري وأبي عبدالله بن مجاهد وأبي الحسن الطبري والقاضي أبي بكر

(28) ابن تيمية: بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول. بهامش منهاج السنة النبوية. ج.1، ص 171

الباقلاني ولم يختلف في ذلك قول الأشعري وقدماء أئمة أصحابه لكن المتأخرين من أتباعه كأبي المعالي وغيره لا يثبتون إلا الصفات العقلية وأما الخبرية فمنهم من ينفيها ومنهم من يتوقف فيها كالرازي والآمدي وغيرهما ونفاة الصفات الخبرية منهم من يتأول نصوصها ومنهم من يفوض معناها إلى الله تعالى».[29]

أما الحنابلة فيقولون بوصف الله بما وصف به نفسه بدون تشبيه ولا تعطيل.

الرحمن على العرش استوى فوق السماوات ولكنه قريب من الإنسان بإجابته للدعاء وعلمه وعمله.

إنه ينزل في الثلث الأخير من كل ليلة إلى السماء الدنيا ليستمع إلى صلوات عباده ويجيب أدعيتهم.

ويقولون بإمكانية رؤية الله في الآخرة كما يرى البدر في الليالي التي لا غيم فيها. غير أنه لا يمكننا أن نفسر كيفيات هذه الرؤية وأن نكشف عن غيبها.

أما الصفات الجسمية للذات الإلهية فيجب أن نقبلها كما هي دون تأويل ودون أن نطرح السؤال كيف. له الخلق والأمر. نفوض له أمر غيبنا. ويقول الحنابلة بقدم القرآن وخلق العالم من العدم. يقول ابن تيمية: «وأما السلف والأئمة» فلم يدخلوا مع طائفة من الطوائف فيما ابتدعوه من نفي أو اثبات، بل اعتصموا بالكتاب والسنة، ورأوا ذلك بعد الموافق لصريح العقل، فجعلوا كل لفظ جاء به الكتاب والسنة، ورأوا ذلك هو الموافق لصريح العقل، فجعلوا كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من اسمائه وصفاته حقاً يجب الإيمان به وإن لم تعرف حقيقة معناه، وكل لفظ أحدثه الناس فأثبته قوم ونفاه آخرون فليس علينا أن نطلق اثباته ولا نفيه حتى نفهم مراد المتكلم. فإن كان مراده حقاً موافقاً لما جاء به الرسل والكتاب والسنة: من نفس أو اثبات قلنا به؛ وإن كان باطلاً مخالفاً لما جاء به الكتاب والسنة من نفي أو اثبات منعنا القول به، ورأوا أن الطريقة التي جاء بها القرآن هي الطريقة الموافقة لصريح المعقول وصحيح المنقول وهي طريقة الأنبياء والمرسلين»[30].

---

(29) ابن تيمية: ن.م.ص 204.

(30) ابن تيمية. مجموع فتاوي شيخ الإسلام، مج 6، ص36 و37.

ويبدو أن ابن تومرت يميل إلى المعتزلة وإلى أبي المعالي الجويني في مسألة الصفات. يقول هنري لاوست: «إن عقيدة ابن تومرت ترجع إلى مذهب أبي المعالي الجويني مع تنازلات لمذهب المعتزلة. من حيث إن عقيدته تلح قبل كل شيء على تعريف الله بالنفي وتنفي وجود صفات في الله متعددة ومتميزة عن ماهيته...»[31].

موقف ابن تيمية من المرشدة ومن ابن تومرت:

لم يكن ابن تيمية هو الوحيد الذي عارض ابن تومرت. فقد انتقده من بعده الامام العلامة أبو اسحاق إبراهيم الشاطبي الغرناطي (790هـ). يقول الشاطبي عن ابن تومرت انه وضع القتل شرعاً معمولاً به على غير سنة الله وسنة رسوله. وقال عنه «المتسمي بالمهدي المغربي الذي زعم أنه المبشر به في الأحاديث، فجعل القتل عقاباً في ثمانية عشر صنفاً، ذكروا منها: الكذب، والمداهنة، وأخذهم أيضاً بالقتل في ترك امتثال أمر من يستمع أمره وبايعوه على ذلك، وكان يعظهم في كل وقت ويذكرهم، ومن لم يحضر أدب، فإن تمادى قتل.. فكان أكثر تأديبه القتل»[32]. ويذكر عنه أنه من رأيه ألا يصلي خلف امام أو خطيب يأخذ أجراً على الإمامة أو الخطابة، وكذلك لبس الثياب الرقيعة. وكان يرى ترك الرأي كالظاهرية ويرى أن التمادي على ذرة من الباطل كالتمادي على الباطل كله. وكان يأمر أصحابه بلزوم الحزب بعد صلاة الصبح وبعد المغرب ويأمرهم أن يقولوا في الأذان إذا طلع الفجر «أصبح ولله الحمد» اشعاراً بأن الفجر قد طلع لالزام الطاعة ولحضور الجماعة، وللغد ولكل ما يؤمرون به[33].

ويذكر في مكان آخر أنه ابتدع أشياء، «كوجوه من التشويب، إذ كانوا ينادون عند الصلاة «بتا صاليت الإسلام» و«بقيام تا صاليت» و«سور دين» و«باردي» «وأصبح ولله الحمد» وغيره[34].

وقد عارض ابن تيمية كل ما جاء به ابن تومرت في مرشدته. وركز نقده على ما يلي من الأمور:

---

(31) H. Laorist: Op.cit. p. 218.

(32) الشاطبي: الاعتصام. ج2، ص90 و91.

(33) ن.م.ص 91 و92.

(34) ن.م. ج1. ص 256.

1 ـ يوضح ابن تيمية أن عقيدة صاحب المرشدة هي عقيدة نفاة الصفات من جهمية ومعتزلة ومتفلسفة وأنه قد صَرَّح بذلك «في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك ذكر فيه أن الله تعالى وجود مطلق، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم». فما هو هذا الكتاب؟ هل هو أعز ما يطلب. وبذلك فإن كثيراً من ادعاءات ابن تيمية لا تجد ما يبررها. أم هو كتاب آخر لم يصل إلينا؟!

2 ـ يبين ابن تيمية أن ابن تومرت لم يذكر في مرشدته الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم. كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، وأهل الكلام: من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم، ومشايخ التصوف والزهد وعلماء أهل الحديث[35]. فإن هؤلاء كلهم في نظر ابن تيمية ليسوا من النفاة بل هم من مثبتة الصفات وهم «متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم، قادر بقدرة»[36]. ويستشهد على صحة قوله بآيات من القرآن الكريم وبما جاء في السنة النبوية.

3 ـ والأئمة الأربعة كما يذكر ابن تيمية وسائر أئمة الفرق المذكورة أعلاه متفقون على أن الله تعالى يُرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله. والواقع أن ابن تومرت يقول بما يقوله أهل السنة في مسألة الرؤية ولعل ابن تيمية لم يطلع على ما جاء في عقيدته.

4 ـ ويؤكد ابن تيمية أن صاحب «المرشدة» لم يذكر فيها شيئاً من الاثبات الذي عليه طرائف أهل السنة والجماعة، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي ﷺ، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر. فإن هذه الأصول كلها في نظره متفق عليها بين أهل السنة والجماعة، ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة، بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق. وهو في نظر ابن تيمية هنا يحذو حذو الفلاسفة والجهمية والشيعة وغيرهم ممن هو ضال في نظر أهل السنة والجماعة[37]. والواقع أن حكم ابن تيمية هذا إن كان ينطبق على مرشدة ابن تومرت فهو لا ينطبق على عقيدة ابن تومرت التي أورد فيها صاحبها ذكر أركان الإسلام والوعد

(35) ابن تيمية: مجموع فتاوي الإسلام، ج11، ص 485.

(36) ن.م.ص 485.

(37) ن.م. ص 486-487.

والوعيد وبإثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى والقضاء والقدر والعدل والإحسان والأسماء الحُسْنَى وإثبات الرسالة بالمعجزات والرؤية وغير ذلك من الأمور[38]. وإن هذه المسائل إن لم ترد في مرشدته فلأنها خلاصة للعقيدة.

5 ـ ذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات، ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية.

6 ـ وزعم في أولها أنه وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك. وليس لأحد في نظر ابن تيمية أن يوجب على المسلمين ما لم يوجب الله ورسوله. فما ورد فيها من حق سبق وروده في الكتاب والسنة ولذلك يجب التصديق به وما لم يرد في كتاب ولا سنة فلا يجب على الناس أن يقولوا به إن كان حقاً وليس له أن يوجب عليهم أن يقولوه فكيف إن كان باطلاً[39].

7 ـ وما ذكره من النفي يتضمن حقاً وباطلاً، فالحق يجب اتباعه والباطل يجب اجتنابه[40]. وقد وضع ابن تيمية ذلك في كتاب «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» أن ابن تومرت قد ابتدع لمن اتبعه على نفي الصفات اسم الموحدين وأنكر عليه ذلك إذ جميع أمة محمد ﷺ موحدون، ولا يحلم في النار من أهل التوحيد أحد. وإن التوحيد الذي يدعو إليه ابن تومرت على غرار نفاة الصفات هو في نظر ابن تيمية تعطيل. ومن تمام التوحيد أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ويصان ذلك عن التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل[41].

8 ـ والتوحيد هو ما بينه الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ في سورة الاخلاص وسورة الكافرون، وفي قوله تعالى «فاعلم أن لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات» وقوله: «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون»[42].

9 ـ ويعترض ابن تيمية على الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين سموا نفي الصفات

---

(38) أعز ما يطلب. 213 إلى 221.

(39) ابن تيمية: مجموع فتاوي شيخ الإسلام، ج11، ص 487.

(40) ن.م. ص 487.

(41) ن.م. ص 487. أنظر أيضاً: بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول على هامش منهاج السنة النبوية. ج1. ص 171.

(42) ابن تيمية ن. م. ج 11 ص 488.

توحيداً والذين يطردون من دائرة التوحيد القائلين بأن القرآن غير مخلوق وبإمكان رؤية الله في الآخرة ويسمونهم مشبهة ومجسمة. ويعتقد ابن تيمية أن ابن تومرت إنما أطلق على أصحابه لقب الموحدين اتباعاً لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ما أنزل الله به من سلطان. وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله به القرآن[43]. يقول: «وقدس صاحب المرشدة أصحابه الموحدين، إذ عندهم مذهب النفاة هو التوحيد»[44].

10 ـ ويرجع لنا ابن تيمية إلى نص المرشدة الذي ورد فيه قول ابن تومرت «قادر على ما يشاء»[45]. بصدد حديثه عن صفات الله. وعقب ابن تيمية على ذلك بقوله: «وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلي الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون: انه لا يقدر على غيرها فعل، ومذهب المسلمين أن الله على كل شيء قدير، سواء شاءه أو لم يشأه كما قال تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم. أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً﴾»[46]. ويستشهد ابن تيمية على صحة قوله بما جاء في القرآن الكريم. يقول: «وقد قال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه، بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ فالله قادر على ذلك، وهو لا يشاؤه، وقد قال تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ فالله تعالى قادر على ذلك، فلو شاء لفعله بقدرته، وهو لا يشاؤه﴾[47].

ومما يدل على أن ابن تيمية مطلع على المرشدة وعلى مذهب ابن تومرت قوله: «وقد شرحت ما ذكره فيها كلمة كلمة وبينا ما فيها من صواب وخطأ ولفظ مجمل في كتاب آخر»[48]. ولم نعثر على هذا الكتاب.

وخلاصة القول في نظر ابن تيمية: «فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها (أي في المرشدة)، ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لا يضرهُ ذلك، فإنه يعطي كل ذي حق حقه، ولا حاجة لأحد من المسلمين إلى تعلمها وقراءتها، ولا يجوز لأحد أن يعدل عما جاء به الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما

(43) ن. م. ص 488 .
(44) ن.م.ج5. ص177.
(45) أعز ما يطلب. ص. 226.
(46) ن.م. ص 488 و489.
(47) ن.م. ص 489.
(48) ن.م. ص 489.

قد يتضمن خلاف ذلك، أو يوقع الناس في خلاف ذلك. وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع، ويقتدي ولا «يبتدي»[49]. لأن جميع الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من أمور الدين تؤخذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وليس في ذلك «مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والاجماع باطل، ولكن فيه ألفاظاً لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلاً، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة»[50]. ويرد ابن تيمية على من قال بأن من لا يقرأ المرشدة فهو كافر بقوله: إن قائل هذا القول: «كاذب ضال مخطىء جاهل يجب أن يستتاب عن مثل هذا القول، فإن تاب وإلا عوقب عقوبة بليغة تردعه وأمثاله عن مثل هذا.. وإن أصر بعد العلم، كان هو الكافر المستحق لأن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل»[51] وقد سبق لنا أن بينا أن ابن تومرت يختلف عن المعتزلة في مسألة الرؤية والاستواء والنزول ولا داعي إلى العودة إلى هذه الأمور. وهو أيضاً يقول عن المولى سبحانه وتعالى بأنه سميع بصير في مرشدته. ولذلك فإن القول بأنه يعتقد عقيدتهم يعتبر اجحافاً في حقه بل هو يوافقهم في أمور ويخالفهم في أمور أخرى تبعاً لمنهجه التلفيقي الذي يجمع بين مذاهب شتى.

مذهبه في الامامة:

عرض لنا المهدي بن تومرت مذهبه في الامامة في جزء هام من كتاب أعز ما يطلب أطلق عليه عنوان الامامة.

يبين ابن تومرت في كتاب الامامة أن الامامة «ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الامامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من آدم إلى نوح ومن بعده إبراهيم»[52] ويشترط ابن تومرت العصمة في الامام على غرار الشيعة فيقول: «ولا يكون الامام إلا معصوماً من الباطل... ومن الضلال ومن الجور ومن

(49) ن.م. ص 490.
(50) ن.م. ص 490.
(51) ن.م. ص 492.
(52) أعز ما يطلب. ص 229.

البدع ومن الكذب ومن العمل بالجهل»[53]. ومن المعلوم أن الشيعة هم الذين يقولون بأن الامامة من أصول الدين التي يجملونها في أربعة وهي التوحيد والعدل والنبوة والامامة. ولعل ابن تومرت قد أخذ عنهم ذلك.

ويتعرض ابن تومرت إلى الامامة عند الأنبياء السابقين وعند الرسول ﷺ كما يتعرض إلى إمامة أبي بكر «الذي اختاره لهم الرسول ﷺ ورضي لهم إماماً في دينهم ومنع سواه من الصلاة. فلما رضيه ﷺ لدينهم رضيه المسلمون لدينهم ودنياهم»[54] وعرفوا حق أبي بكر وعظموه إعظاماً لحق الله ثم بعده عمر فقام بالحق أحسن قيام وقاموا بطاعته أحسن قيام كما ثبت من صفاته وأخباره اعتقدوا طاعته أنها طاعة الله وطاعة رسوله بالصفاء والمودة والصدق وحسن الصحبة بقلوب سامعة طائعة مساعدة موافقة غير منكرة ولا مستكبرة ولا شاكة ولا ظانة ولا خائنة بلا ضيق ولا حرج فيما حكم وقضى وفيما أمر ونهى حتى جاءته الوفاة فتوفي وهو عنهم راض، ثم الأمر كذلك حتى انقضت مدة خلافة النبوة ثلاثين سنة بعد المصطفى ﷺ ثم بدت بعد ذلك أفراق وأهواء ونزاع واختلاف وقلوب منكرة وشبح مطاع وهوى متبع وإعجاب كل ذي رأي برأيه»[55].

وإن ابن تومرت الذي يخالف الشيعة في أمر الخلفاء الراشدين ويعتقد بصحة إمامتهم كلهم بدون استثناء، يوافقهم في أمر المهدي المنتظر الذي يملأ الدنيا عدلاً[56] وهذا المهدي هو ابن تومرت نفسه.

ويعتقد ابن تومرت أن العلم بالمهدي «واجب والسمع والطاعة له واجب واتباعه والاقتداء بأفعاله واجب والايمان به والتصديق به واجب على الكافة والتسليم له واجب والرضى بحكمه واجب والانقياد بكل ما قضى به واجب والرجوع إلى علمه واجب الخ...»[57] إلى جانب هذا كان ابن تومرت من القائلين بالخروج على أئمة الجود. وقد استباح الثورة المسلحة على المرابطين بناء على قوله ﷺ: «أعيذك بالله يا كعب بن

---

(53) ن.م.ص.

(54) ن.م. ص 231 و232.

(55) ن.م. ص 232.

(56) ن.م. ص 234.

(57) ن.م. ص 234.

عجرة من أمراء يكونون بعدي فمن غشي أبوابهم وصدقهم على كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولا يرد علي الحوض ومن لم يغش أبوابهم ولم يصدقهم على كذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه وسيرد علي الحوض» وبمقتضى قوله تعالى: ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾[58].

وكان ابن تومرت يعتقد أن طائفته هم أهل المغرب الظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة[59]. في حين ذهب ابن تيمية من بعده إلى أن أهل المغرب المقصودين في الحديث ليسوا بأهل المغرب ولا بأهل افريقيا بل هم أهل الشام ومصر.

يقول: «فهذا وغيره مما يبين أن هذه العصابة التي بالشام ومصر في هذا الوقت هم كتيبة الإسلام. وعزهم عز الإسلام وذلهم ذل الإسلام. فلو استولى عليهم التتار لم يبق للاسلام عز ولا كلمة عالية ولا طائفة ظاهرة عالية يخافها أهل الارض تقاتل عنه»[60]. والواقع أن هذه التفسيرات التي تقصر أهل المغرب على طائفة دون أخرى هي تفسيرات تحكمية لأن نص الحديث مطلق ليس مقصوراً على طائفة دون أخرى بل يشمل جميع الطوائف التي تسكن الناحية الغربية من العالم الإسلامي.

وقد خصص ابن تومرت جزءاً هاماً من كتاب أعز ما يطلب للجهاد. فتعرض للترغيب في الجهاد ولفضل الشهادة في سبيل الله. كما تعرض للجهاد بالمال ولرباط الخيل وللاستعداد بالسلاح للجهاد وللخروج إلى الجهاد وللأمر بالصبر على الجهاد ولاخلاقيات الجهاد. كما تحدث عن الغنائم والغلول والجزية والشهيد وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[61]. وكان الجزء الذي خصصه للجهاد حقيقة رائعاً لا يقل في روعته عن الصفحات التي ضمنها ابن تيمية كتاب الجهاد والتي ضمنها الغزالي كتاب الوجيز.

وخلاصة القول أن نظرية ابن تيمية السياسية تجمع بين عناصر شيعية (الامامة ركن من أركان الدين، عصمة الأئمة، المهدي المنتظر) وعناصر أخذها من الخوارج (الخروج على أئمة الجود) وعناصر أخذها من أهل السنة (الاقرار بإمامة الراشدين حسب ظهورهم الزمني والدعوة إلى الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

---

(58) ن.م. ص 245 و248.

(59) ن.م. ص 252.

(60) ابن تيمية: مجموع فتاوي شيخ الإسلام، ج28، ص 534.

(61) أعز ما يطلب. ص 359 إلى 422.

إلا أن فكرته عن الامامة لم ترق لأقطاب الفكر السني. فقد وقف لها ابن تيمية بالمرصاد. وقد بنى ابن تيمية زيف فكرته عن المهدي المنتظر. فقد طلب من الناس أن «يشهدوا له بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله ﷺ الذي يواطىء اسمه اسمه، واسم أبيه اسم أبيه وأنه الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً وأن من اتبعه أفلح ومن خالفه خسر»[62]. ويذكر عنه أنه استحل دماء الألوف من المعارضين له[63].

ويقول في منهاج السنة النبوية: «كطائفة ابن تومرت الذي كان يدعي فيه أنه المهدي المعلوم والامام المعصوم إذا ذكروه باسمه على المنبر ووصفوه بالصفات التي تعلم أنها باطلة وجعلوا حزبه هم خواص أمة محمد ﷺ وتركوا مع ذلك ذكر أبي بكر وعمر وعثمان وعلي الخلفاء الراشدين والأئمة المجتهدين المهديين الذين ثبت لهم بالكتاب والسنة واجماع السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان أنهم خير هذه الأمة وأفضلها وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون في زمان أفضل القرون ثم أخذ هؤلاء التومرتية ينتصرون لذلك بأن ذكر الخلفاء الأربعة ليس سنة بل بدعة. كان هذا القول مردوداً عليهم غاية الرد مع ذكرهم إمامهم ابن التومرت بعد موته فإنه لا يشك من يؤمن بالله واليوم الآخر إن أبا بكر وعمر وعثمان ﷺ خير منه وأفضل منه وإن اتباعهم للنبي ﷺ وقيامهم بأمره أجمل»[64]. ولم يكن ابن تيمية بعد وحده الذي عارض نظرية الامامة لابن تومرت بل عارض في ذلك الشاطبي أيضاً فقال في كتاب الاعتصام: «وذكر في كتاب الامامة أنه هو الامام، وأصحابه هم الغرباء الذين قيل فيهم «بدىء الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدىء، فطوبى للغرباء». وقال في الكتاب المذكور: جاء الله بالمهدي وطاعته صافية نقية لم ير مثلها قبل ولا بعد، وأن به قامت السموات والأرض، وبه تقوم، ولا ضد له ولا مثل ولا ند انتهى. وكذب، فالمهدي عيسى عليه السلام»[65]. ويذكر في نفس الكتاب بعض الأفكار الأساسية التي جاءت في كتاب الامامة لابن تومرت كاستخلاف الله للانبياء وخلافة النبوة وتفرق الناس بعد ذلك وتسلط الشبح المطاع والهوى المتبع: وظهور المهدي. فقد عد نفسه الامام المنتظر وأنه

---

(62) ابن تيمية: مجموع فتاوي شيخ الإسلام، ج 11، ص 477.

(63) ن.م. ص 478.

(64) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، ج 2، ص 150.

(65) الشاطبي: الاعتصام. ج 2، ص 91.

معصوم، حتى من شك في عصمته، أو في أنه المهدي كافر. ويكذبه الشاطبي في ذلك[66].

وكانت هذه المقاومة التي لقيها ابن تومرت في الأوساط السنية نتيجة لأفكاره المستعارة من الشيعة.

ابن تومرت والغزالي:

تعرضنا عمداً لمذهب ابن تومرت في الامامة لنبين أن فكر الغزالي السياسي غريب كل الغرابة عن نظريته في الامامة. فالغزالي في الاقتصاد وفي الاعتقاد وفي المستظهري وفي الاحياء وفي نصيحة الملوك وفي الرسائل القادسية يدافع عن الفكر السياسي السني الممزوج بما توصل إليه عبر تجربته الطويلة من قناعات صوفية. وتبدو فكرة العصمة والمهدي وغيرهما من الأفكار من الأمور الغريبة عن الفلسفة السياسية للغزالي التي كرست جزءاً كبيراً منها لدحض أباطيل الباطنية وفضائحها.

ولذلك يبدو من الغريب جداً أن يكون ابن تومرت قد تأثر بالغزالي أو خَطِيَ برضاه عن الثورة التي سيقودها ضد المرابطين إن سلمنا بأنه قد التقى به وتتلمذ عليه. اللهم إلاَّ أن يكون الغزالي يجهل كل شيء عن تفاصيل النظرية السياسية التي يؤمن بها ابن تومرت. والواقع أن ابن تومرت لم يرغب عن مذهب الغزالي السياسي فقط بل رغب عن مذهب أهل السنة كلهم الذين سمحوا له بأن يتكون على أيدي علمائهم مثل الكيا الهراسي وأبي بكر الشاشي ولعل الأثر الذي خلفه هؤلاء في ابن تومرت يتمثل في تكوينه الأصولي. فقد سمح له كل من الكيا الهرَاسي والغزالي - إن صحت تلمذته عليه - التعرف على مذهب أستاذهما أبي المعالي إمام الحرمين الجويني في علم الكلام. وتبدو آثار الجويني كما أسلفنا واضحة في مذهب ابن تومرت إلى جانب عناصر اعتزالية.

ويوضح لنا الدكتور يحيى هويدي مدى اختلاف المؤرخين حول لقائه بالغزالي في تلك الرحلة التي اعتزل فيها حجة الإسلام الناس وسلك سبيل التصوف واستمرت عشر سنوات (488-499) وبدأت برحيله عن بغداد عام 488 وزار خلالها بيت المقدس

(66) ن.م.ج 1. ص 255.

ومكة ومصر يقول الدكتور يحيى هويدي: «فابن الأثير يقول إن لقاءهما تم في بغداد «وكان ابن تومرت قد رحل في شبيبته إلى بلاد المشرق في طلب العلم... وصل في سفره إلى العراق واجتمع بالغزالي» وابن خلدون يقول في العبر (ج6) «ولقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي» مما يشعر بأنه يشك في هذا اللقاء»[67].

أما الروايتان اللتان وردتا في الوفيات والمؤنس فيلخصهما الدكتور يحيى هويدي فيما يلي: «وابن خلكان في وفيات الأعيان يؤكد أنهما التقيا في العراق فيقول: «رحل إلى المشرق في شبيبته طالباً للعلم فانتهى إلى العراق واجتمع بأبي حامد الغزالي» وابن أبي دينار في المؤنس في أخبار افريقيا وتونس يقدم لنا بصدد هذا اللقاء روايتين: في الأولى يؤكد لنا أن هذا اللقاء قد تم دون أن يحدد لنا زمانه ومكانه قائلاً: «وأول أمره كان متقشفاً مشتغلاً بطلب العلم فرحل إلى المشرق ولازم أبا حامد الغزالي ثلاث سنين وحصل عليه علماً عظيماً. وكان أبو حامد إذا رأى ابن تومرت يقول لا بد لهذا البربري من دولة» وفي الرواية الثانية، يذهب إلى أن هذا اللقاء لم يتم فيقول: «ولما اتسعت دعوة ابن تومرت وفد عبد المؤمن من أهل اشبيلية بالبيعة في سنة 542 وفيهم أبو بكر بن العربي فسأله عبد المؤمن: هل رأى المهدي عند الشيخ أبي حامد الغزالي، قال: ما لقيته ولكن سمعت به. فقال له فما كان أبو حامد يقول فيه، قال: كان يقول لا بد لهذا البربري أن يكون له شأن»[68].

ويتعرض صاحب المعجز إلى هذا اللقاء بطريقته الخاصة فيبين أنهما التقيا في الشام وليس في العراق «كان ابن تومرت حاضراً لمجلس الغزالي في الشام وروى له ما فعل أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من احراقها وافسادها وابن تومرت حاضر ذلك المجلس. فقال الغزالي حين بلغه ذلك: ليذهبن عن قليل ملكه ليقتلن ولده. وأما أحسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا» ولكنه كما يضيف د. يحيى هويدي يعود فيشكك في هذا اللقاء بهذه العبارة: «وقيل انه لقي أبا حامد الغزالي أيام تزهده فالله أعلم»[69].

ويشكك المستشرقون وعلى رأسهم جولد تسيهر وهنري لاوست في هذا اللقاء

---

(67) يحيى هويدي: مقالة سابقة. ص. 20.

(68) ن.م. ص 20.

(69) ن.م. ص 20.

ويعتبرانه من قبيل الأسطورة وذلك لأن ابن تومرت قام برحلته إلى المشرق عام 501[70].

وذهب محمد المستنصر الكتاني معتمداً على المؤنس في أخبار افريقيا وتونس - إلى أن ابن تومرت قد عرف الغزالي بل صاحبه ولازمه طيلة ثلاث سنين، طالباً للعلم ومريداً ونحن بدورنا نرجح هذه الرواية لأن ما ذكره ابن أبي دينار في مكان آخر لا يناقض هذا القول ولا يدعمه ويذكر الكتاني أنه أخذ عنه طريقته في التربية والانقطاع للعلم والدعوة. إليه كما أخذ عنه مذهب الأشاعرة في علم الكلام كما أخذ عن الكيا الهراسي مذهب إمام الحرمين أبي المعالي الجويني. ويذكر الكتاني أنه كان يفضي إليه برغبته في الإصلاح والثورة على دولة المرابطين. وكان يعلن ذلك في المجالس بين الناس[71]. غير أن هذا الأمر مستبعد وإلا بلغ ذلك الخليفة المستظهر بالله الذي كان من قبل قد قلد ليوسف بن تاشفين إمارة المسلمين. اللهم إلا أن يكون الجهر بهذه الدعوة قد وقع في عهد علي بن يوسف بن تاشفين. وذلك عندما أحرق هذا الأخير كتب الغزالي وخاصة كتاب الاحياء، فلما بلغ ذلك الغزالي وكان محمد بن تومرت حاضراً مجلسه. وحين دعا عليهم الدعاء المستجاب الذي عده السبكي من كرامات الغزالي، استغل ابن تومرت هذه الفرصة السانحة وهذه الظروف التي استهجنها الغزالي وأثارت غيظه فرجاه في الدعاء أن يكون دمار ملكهم على يده فلبى الغزالي طلبه وتوسم فيه الظهور على خصومه من المرابطين. ومنذ ذلك الوقت أخذ يجهر بالدعوة في المجالس بين الناس لأن رضا الغزالي عنه سيحميه دون شك من سخط المستظهر بالله، بل ويمكن أن يسعى له لديه. غير أن ثورة المهدي على المرابطين لن تبدأ إلا بعد تسع سنين من وفاة الغزالي أي سنة 514هـ. هذه الثورة التي حظيت برضاه قدر لها ألا تظهر إلى الوجود إلا بعد وفاته. غير أنَّ السبكي لا يذكر المهدي بن تومرت عند حديثه عن كرامات الغزالي بل يذكر عبد المؤمن بن علي صديق بن تومرت الذي قام بالفتوحات الموحدية وقمع المخالفين للدولة الجديدة والخارجين عنها.

---

(70) ن.م. ص 20 وانظر أيضاً: H. Lanost. aput. p 217.

(71) محمد المستنصر الكتاني: الغزالي والمغرب، ص 711 إلى 714.

خاتمة:

وهكذا يتضح لنا أن الغزالي لم يؤثر في الفكر السياسي التومرتي إذا استثنينا احتمال تأثير وجهة نظره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نظرية المهدي بن تومرت. إن نظرية ابن تومرت تربطها وشائج قربى بنظرية الشيعة أكثر مما ترتبط بالنظرية السنية للغزالي. وقد تأثر بالغزالي في ثورته على جمود الفقهاء.

ومهما يكن من أمر فإن نظريته السياسية قد مكنته من توحيد المغرب الإسلامي ومن جمع شمله وحفظ شوكته. ومكنته من مواجهة أعدائه في الداخل والخارج. وهذه النقطة الهامة وحدها تكفي لتغطية الهنات والنقائص التي اكتشفها فيه ابن تيمية من وجهة النظر السلفية.